

الموسوعات تخسر في حرب النت الطاحنة

حسن الوزاني
كاتب مغربي



خلال لحظات طويلة من تاريخ وحياة الكتاب، ظلت مصادر المعلومات النوع الأقرب إلى القارئ باعتبارها دليلاً نحو المعلومات الجيدة ونحو الكتاب الذي يستجيب لحاجياته. وذلك خصوصاً في سياق زحمة تزايد ولعله من باب الصدفة المحزنة أن المعلومات غير المنتهي. ولذلك كان عادياً أن يتم الانتباه إلى أهمية المصادر، بشكل مبكر، خصوصاً من طرف الغرب، وإن كانت المبادرات العلمية العربية الفردية سابقة على ذلك. وهو ما عكسه، على سبيل المثال، قيمة عمل "الفهرست" لابن النديم، الذي سيفتح الباب أمام تأسيس مجال جديد، على المستوى الكوني، والذي يتجلى في العمل البيبليوغرافي وذلك قبل تسعة قرون من المشروع الثاني الضخم الذي عرفه المجال، وهو الذي أطلقه الباحثان البلجيكيان، بول أوطليت وهنري لافونتتين، بهدف حصر ما صدر من الكتب على مستوى دول العالم منذ ظهور الطباعة، قبل أن يتخلى عنه لصعوبة تحقيق العمل.

خلال نهايات القرن التاسع عشر، سيشر الباحث الأميركي في مجال المكتبات، مقالته العلمية الشهيرة عن العلاقة بين المكتبيين والقراء، ليطلق بذلك الإطار العلمي لمفهوم مصادر المعلومات والمصالح الخاصة بتقديم الخدمات على مستوى المكتبات، خصوصاً لصالح رجال الأعمال والموظفين وغيرهم من الذين لم يكونوا يملكون الوقت ولا المعرفة للوصول إلى ذخائر الأرصدة.

وبذلك، ومع بداية القرن العشرين، سيكون للكثير من المكتبات العمومية الأميركية وحداتها الخاصة بتوجيه وخدمة القراء، بل إنها ستتيح لهم، ابتداءً من ثلاثينات القرن الماضي، خدمة التواصل والتوجيه عن طريق الهاتف. أما المبدأ الذي يقود هذا الاهتمام فهو اعتبار القارئ كملك، يجب الاستجابة لكل انتظاراته على مستوى الوصول إلى الكتب وإلى المعلومات. على الأقل كما تصوره أدبيات علم المكتبات.

في مقابل ذلك، اتسم السياق العربي خلال هذه الفترة بتراجعته على مستوى المكتبات والاهتمام بالمصادر. وذلك ضداً على اللحظات المشرفة التي عاشتها المكتبات العربية خلال القرون السابقة. بل إن العرب، كما تؤكد الباحثة الفرنسية المختصة في المخطوطات العربية فرانسواز ليليري، في سياق تنفيذها للمزاعم التي تحملهم مسؤولية هدم مكتبة الإسكندرية، كانوا لا يتصورون فضاء الدراسة دون وجود مكتبة، بخلاف الفرنسيين.

كما شمل هذا الاهتمام الجانب التخليقي للمكتبات العربية، التي كانت تتوفر بشكل مبكر، على الوظائف التي يقتضيها العمل المكتبي، ومنها وظيفة المساعد المكلف بالتوجيه، والمناول المكلف بالمخزن، بالإضافة إلى المحافظ، الذي كان يعرف بصاحب المصاحف. وهي وظيفة كان أول من تولاهما الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك، كما يشير إلى ذلك الباحث الأميركي دافيد ستام، في كتابه الهام "المعجم الدولي لتاريخ المكتبات". وتم ذلك بشكل مبكر، وبالضبط خلال القرن الثامن الميلادي، وذلك في اللحظة التي كانت مخطوطات أغلب مكتبات أوروبا مشدودة بالأغلال، بشكل مخالف لوظيفة المكتبة كفضاء للجمع.

وفي جميع الأحوال، ستعيش مصادر المعلومات، هناك أو هناك، تالفها الخاص، باعتبارها الطريق الأفضل نحو ديمقراطية المعرفة وتيسير الوصول إليها من طرف الجميع. غير أنها ستكون

على موعد مع ضف جديد، غير كريم، لا يقبل تقاسم الكون مع أحد، خصوصاً إذا كان الأخرى رقيقاً. بينما لم يكن هذا الضيف سوى

صنع الله إبراهيم يتلصص بعين طفل على الواقع

تلصص صورة لمصر في الأربعينات بعين طفل



الكل مصدومون من التلصص حتى الأطفال (لوحة للفنانة سارة شمة)

أهم ما يميز كتابة صنع الله إبراهيم، بصفة عامة، أنها نصوص كتابية، فيحطم عبرها المفهوم الكلاسيكي للرواية، بان يقدم نصاً مفتوحاً يقع على اعتاب دوائر نوعية متعددة كالرواية والسيرة والتاريخ أيضاً، ومن ثم لا نجد حكاية بالمفهوم المتعارف عليه (بداية - وسط - نهاية)، ففي "التلصص" نحن أمام نص بلا حكاية تقريباً، أشبه بجريان النهر، يتدفق إلى الأمام، يزداد قوة لكن لا نهاية له، حتى النهاية التي يضعها ويختم بها النص، تأتي كضرورة سردية، يُجبر على التوقف عندها، لكن لا توجد أحداث أو حكاية تنتهي مع نهاية النص. كما تكشف لنا

عن فضولية تقسيم النص إلى أربع فصول، خاصة أن ثمة هناك وحدات سردية مستقلة دون ترقيم أو عناوين، ومن ثم لو تساعلنا ما الضرورة الفنية لهذا التقسيم؟ لجاعت الإجابة، لا شيء. عين الطفل الراصدة، هي التي تتوقف عند كل شيء تراه، فعلى الرغم من أن الجمل فعلية قصيرة، تعدد إلى الاختزال الإيهام، إلا أن عين الطفل الساردة تتوقف أحياناً أمام الأشياء كي تصف، فعندما يصف الجرسون يقول هكذا "يقترّب منا جرسون يوناني في قميص أبيض وينظرون أسود. تزين رقبته ربطة عنق سوداء على هيئة فراشة" توقف عين الطفل عند هذه الأوصاف، يعكس طبيعة الفضول التي تشكل وعي الأطفال في مثل هذه السن، وهو الفضول الذي نقل لنا كافة الواقع التي جرت.

تقنيات حدائية

الرواية قائمة على بنية سردية، تدمج الحوار في بنية السرد، عبر وسيط هو الابن الراوي، فلا حوارات مسهبة، وإنما كانت بمثابة نقطة مفصلية في اهتزاز النقطة بينه وبين أبيه الذي كان يلزمه كظله، فهام في التسوارع، رافضاً أن يعود إلى المنزل من جديد. وعلى مستوى مفردة العنوان فالتلصص حاضر في النص، وتردد تجليات المفردة بكافة أشكالها بما فيها استفسار نبيلة عن وجود أموال لأبيها في البنك من أخيها.

زرأكش الجنية، من خلال النقاشات بين الأصدقاء، وصدى غلاء الأسعار في خروج الطلاب في مظاهرات تندد بسياسات الملك الطائشة على نزواته، وأيضاً أصداء الحياة على وقع الانفجارات، وصدارات الإنذار، وازمة المساكين بل مسجلاً لهذات الأطفال احتفاء بقدوم شهر رمضان، وأيضاً هتافات البائعين وهم يعرضون بضاعتهم. وأيضاً لسياقه الثقافي (لغته وعاداته، وشخصياته)، والسياسي (بصراعات الأحزاب وكشف فضائح الملك).

كما أن الرواية أشبه بعين على حالة التدين الزائف؛ فالابن الذي لا يخرج لصلاة الجمعة ويصلي خلف الإمام في البيت، ويطارد النساء بنظراته الشبقية، هو نفسه، ما إن هل شهر رمضان حتى يكتسي ثوب الورع "فيتوضأ ويستعد للصلاة... وما إن ينتهي المؤذن من الأذان، يتناول ما يكسر به صومه، ثم يفرش سجادة الصلاة فوق البلاط".

الرواية التي تأتي بالضمير الأنا محورها طفل لم يتجاوز التاسعة من عمره، في معية أبيه الذي تجاوز الخامسة والسبعين، يتحرك بنا الطفل، عبر عدسته التي تسجل كل ما تراه عيناه وهو يتجول مع أبيه سواء في رحلات ذهابها إلى البقالات، أو إلى السينما أو حتى الزيارات العائلية، وصحبة الأصدقاء، يرصد الراوي بعين الطفل المفتقد لحنان الأم، حالة الهوس التي يُعانيها الأب من فقدانها للنساء، بدءاً من مراقبته للعلامات في بيته، وتلصصه عليهن، وأيضاً على الجارات، والنساء في الشوارع.

يكتسب الابن الخائف من العفاريات والجلوس منفرداً في البيت، عادة التلصص من أبيه، فيتلصص هو الآخر على أخته نبيلة وزوجها فهمي في غرفة نومهما، وعلى فهمي والخادمة خضرة أيضاً، ويتلصص على الجيران من خلف النافذة، وعلى ماما تحية وهي تتنظف جسدها بالحلوى، وعلى الخادمة فاطمة وهي تستحم، ثم تأتي الفاجعة بتلصصه على أبيه وفاطمة في غرفة النوم. فمثل في المرة الأولى، ونجح في الثانية التي كانت بمثابة نقطة مفصلية في اهتزاز النقطة بينه وبين أبيه الذي كان يلزمه كظله، فهام في التسوارع، رافضاً أن يعود إلى المنزل من جديد. وعلى مستوى مفردة العنوان فالتلصص حاضر في النص، وتردد تجليات المفردة بكافة أشكالها بما فيها استفسار نبيلة عن وجود أموال لأبيها في البنك من أخيها.

لا يخفى على المتابع لنتاج الروائي المصري صنع الله إبراهيم، أحد رواد جيل الستينات، منذ روايته القصيرة الإشكالية "تلك الرائحة" وصولاً إلى روايته "التلصص" أن الروائي في جميع أعماله يمرّ بداخلها جزءاً من تجربته الذاتية. كما أن صنع الله يعترف بهذا في حوار عن هذه الرواية "هذه ليست سيرتي الذاتية، إنما هي رواية وإن كانت تحتوي على تفاصيل من حياتي، وبعض المواقف والتفاصيل التي عشتها".

ممدوح فراج النابلي
كاتب مصري



صدرت رواية "التلصص" لصنع الله إبراهيم أولاً عن دار المستقبل العربي عام 2007، ثم أعادت مؤخرًا الهيئة العامة لقصور الثقافة نشرها ضمن سلسلة روائع الأدب العربي.

لن أتوقف هنا عند تتبع ترددات الإصداء الذاتية التي مررها المؤلف في النص، أو حتى البحث عن الأجزاء الواقعية مقارنة بالأجزاء التخيلية، وإن كنت أرى أن الرواية ليست سيرة ذاتية لصاحبها، بقدر ما هي سيرة ذاتية مجتمعية، في لحظة مفصلية من تاريخ الوطن.

سيرة مجتمعية

الزمن المرجعي وفقاً للإشارات التي مررها الكاتب في الرواية، سواء أكانت إشارات ثقافية لها أهميتها في إظهار الشراء الفكري لهذه الحقبة، مثل: أفلام فريد الأطرش وصباح، ومحمد عبدالمطلب وعلى الكسار وهاجر حمدي، وعبدالفلاح القصري وإسماعيل ياسين، وسينما كوزمو، وماجستيك، وميامي، ومسرح الأزبكية، وأغاني أم كلثوم وعبد الوهاب، وكتابات فكري أباطة، وأشعار إبراهيم ناجي والعقاد.

وأيضاً إشارات سياسية كحرب فلسطين 1948، وقيام دولة إسرائيل، والإعتيالات السياسية، والمحاکمات العسكرية، وفضائح القصر، ومظاهرات الطلبة، وغلاء الأسعار، وتفجيرات الإخوان، وحملات اعتقال الشيوعيين، وغيرها من أحداث محلية وأخرى عالمية تضعنا في سياق ثقافي وسياسي واجتماعي مغاير لزمّن كتابتها. جميعها تشير إلى نهاية الأربعينات من القرن الماضي.

الرواية تدخل بنا عالم المهتمين، حياتهم بسيطة تدور في وتيرة واحدة، لا يعكرها إلا صراع مكابدة الحياة

وهذه الاستعادة التي لا تأتي مجاناً إلى جانب حكاية الطفل والاب، التي في مجملها حكاية عادية عن عالم من المهتمين، حياتهم بسيطة تدور في وتيرة واحدة، لا يعكرها إلا صراع مكابدة الحياة، ومن ثم تأتي التسرية الكبرى، في حالات التلصص والمراقبة تارة، وتارة حالات التلميح مع الأصدقاء، التي تكشف هي الأخرى عن هوس الرجال بالجنس والنساء.

ويسبب هذه الاستعادة بميل السرد إلى التسجيل - كعادة صنع الله إبراهيم في أعماله - لفترة من فترات تاريخ مصر، من خلال تسجيل وقائع الحياة السياسية والاجتماعية راصداً لأنماط الحياة الاجتماعية في هذه الفترة، كما برزت في صورة الملابس (المالية اللب، والطربوش) وزيارات الأعياد، وسيطرة الخرافة، بالاعتماد على كتب السحر والتنجيم، وترويج الشائعات والخرافة كما في حالة زواج ماجد أفندي من

مصادر المعلومات كانت الطريق الأفضل نحو ديمقراطية المعرفة وتيسير الوصول إليها لكنها فقدت مكانتها في عصر الأنترنت

أما المستفيدة من أقول الموسوعتين فهي بالضبط الموسوعات الإلكترونية الحرة، التي تقوم على فتح مجال الكتابة أمام الجميع، في غياب نظام صارم للقراءة القبلية للمقالات المنشورة، مع ما يمكن أن يخلفه ذلك من فائض من الأخطاء. كما هو الأمر بالنسبة لـ"ويكيبيديا" وأخواتها، بلغاتهما التي تتجاوز المئتين وستين لغة، وبما فيها الموسوعة الأخت ويكي ميمي التي يكتب موادها الأطفال. ولم يسلم نوع آخر هام من مصادر المعلومات، وهي مؤلفات الألمانك، من حرب البتالون فضاء للدراسة دون وجود حضوراً خاصاً، منذ القرن السابع عشر، بفضل طبيعة المعلومات العملية الموجهة إلى المواطن البسيط، شبه الأمي أحياناً. وهي المعلومات التي تتعلق بالظواهر الطبيعية وبيئاتها السنوية، وبأحوال الطقس والمناخ، وهو ما قد يفسر الأصل العربي لاسم هذا النوع من المؤلفات، الذي يُنطق أيضاً بـ"الأمناخ".

وستكون الحوليات على موعد مع نفس المال، حيث سيفقد العالم مصدرين أساسيين. الأول هو "حوليات شمال أفريقيا"، المرجع السنوي الذي كان قد أصدره المعهد الوطني للبحث العلمي بفرنسا، في بداية ستينات القرن الماضي ليشكل المصدر الأساس للبحث في ثقافة وتاريخ وسياسات واقتصاد دول المنطقة. أما المصدر الثاني فيتجلى في "الحوليات الإحصائية لليونسكو". وإن كان المصدران متاحين من خلال قاعدتي معطيات متطورتين. وبشكل مفارق لكل ذلك، ستكون تكنولوجيا المعلومات الجديدة، التي أتت على كثير من المصادر الورقية، وراء منح حياة جديدة لكثير منها. بفضل ما يوفره النت على مستوى فيضان معلوماته، وبفضل تكسيره للحدود بين أنواع المصادر.

